

العلم والوطنية

الى الأستاذ توفيق الحكيم

من الأستاذ أبي خلدون ساطع الحصرى

مدير دار الآثار ببغداد

قرأت الكلمة الرشيدة التي ديجتها يراعتكم الفنانة ، في
صدد الرد على استفاء الرابطة العربية حول مسألة العلم
للعلم أم العلم للوطنية ؟
قرأتها بامعان واهتمام ، وأعجبت بالآخيلة والتشبيات
التي تحملت بها ؛ غير أنني لم أقتنع بصحة الأفكار والآراء التي
تضمنتها
لقد قلتم بصيغة التأكيد الحاسم : العلم والوطنية لا يمكن
أن يتفقا ...

إذن فأنتم تعتقدون أن العلم والوطنية مختلفان ؛ وزيادة
على ذلك تقولون بأن اختلافهما هذا سيستمر إلى الأبد ،

كما نراهم الآن فذلك ما يخالف فيه الأستاذ لأنه خلاف
المعهود والمروى والمسطور . وهبهم أكبروا معاصريهم
لأنهم قلائل ، وأصغرنا معاصرينا لأنهم كثيرون لا نادرون
كما يقول الأستاذ الفاضل ، فانما يكون ذلك كالذهب الذي
يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لاشك فيه ، وانما
يكون النوبغ نيوغاولا يكون شيئا آخرهما يكن حظ الناس
من التعليم ، لأنه ملكة في الطباع لا يختلف كنهها وإن اختلفت
أنظار الناس اليها ، ولا تزال الانسانية بحاجة إلى الكثير
منهم والقليل

وخلاصة القول أننا نستطيع أن نقول مع الأستاذ
الكبير إن النوبغ في عصرنا كثرة لاندرة ، ولا نستطيع أن
نقول معه ان المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب في
العصر الحديث ، لان ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من
المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك
التي يخلق بها النابغون الممتازون عباسي محمود العقاد

ولن يزول في يوم من الأيام ...
على أني أعترف أيها الأستاذ بأنني من الذين يدينون
بدين العلم والوطنية في وقت واحد ، ومن الذين يقولون
على الدوام بوجوب نشر الروح العلى ، من جهة ، و تقوية
الشعور الوطنى ، من جهة أخرى
أفلا تعذروتنى إذن إذا ما اعتبرت نظرتكم هذه من
الخطورة بمكان ، فأخذت على عاتق مناقشتكم فيها مناقشة
شاملة لآظهار الحقيقة التي أعتقدها ؟

تقولون ، أيها الأستاذ ، بأن العلم والوطنية لا يمكن أن
يتفقا ، وتحاولون أن تبرهنوا على هذه الدعوى بثلاث قضايا :
١- إن الوطنية هي الانانية في المجموع ،
٢- والانانية عمياء ،

٣- والعلم هو البصر - المنزه - بحقيقة الأشياء ...
إننى لا أود أن أبدأ المناقشة بالبحث عن مبلغ صحة هذه
القضايا ؛ بل أود أن أسلم بها مؤقتاً ، لأرى هل تكفى للدلالة
على صحة رأيكم في هذا الصدد ...
تقولون : ١- إن الوطنية هي الانانية في المجموع ، فهل
تستطيعون أن تقولوا - في الوقت نفسه - بأن العلم ينكر
الانانية على الإطلاق ، ولا يعترف بأثرها في حياة الحيوان
والانسان ؟

تقولون : ٢- إن الانانية عمياء ، فهل تستطيعون أن تقولوا
- في الوقت نفسه - إن العلم يخالف كل ما هو أعمى ؟ أفنتكرون
أن القوى الطبيعية أيضاً عمياء ؟
تقولون : ٣- إن العلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء ، فهل
تستطيعون أن تأتوا ببرهان يدل على أن الوطنية - خارجة
عن حقائق الأشياء ، ؟ ...

كلا .. إن الوطنية قوة اجتماعية فعالة ، ليس إلى إنكارها
من سبيل ... آثارها تظهر دائماً ، من خلال الوقائع التاريخية
والحادثات الاجتماعية ، بكل وضوح وجللاء ففى تدخل لذلك في
نطاق وحقائق الأشياء ، كما تدخل فيه سائر القوى والمؤثرات
الطبيعية ، كالوراثة والمناعة والمغناطيسية والجاذبية ...
فاذا أردنا أن نجعل الوطنية موضوع بحث على ، يجب

فان العلم لا يختلف الآن إلا مع ما يخالف الواقع . .
وإننا مهما تعمقنا في تحليل طبيعة العلم من جهة وطبيعة الوطنية
من جهة أخرى لا نجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بوجه
من الوجوه .

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من المناقشة أرى أن نترك
هذه الأحكام الآنية ، جانباً ، لنستقرى . الوقائع التاريخية
فتنظر فيما إذا كان العلم والوطنية قد اتفقا أم اختلفا فعلا في
مختلف الأجيال ...

إننى أستطيع أن أذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على
« اتفاق العلم مع الوطنية ، و « خدمة العلم للوطنية ، بصورة
فعلية ، لعل أقدم هذه الوقائع يعود إلى عهد « أرخميدس ،
الشهير ، ويتعلق بقصة مقاومته للرومان ، فإن هذا العالم الكبير
الذى يعتبر من آباء علم الميكانيك ، والذى يتردد اسمه حتى على
أسنة طلاب المدارس الابتدائية في دروس الطبيعة والأشياء ،
هذا العالم الكبير لعب (بعلمه) دوراً هاماً في تاريخ وطنه
سيراوسة ، فعند ما حاصرها الرومان ، وضع كل ما عنده
من علم وقوة تفكير واختراع إلى خدمة وطنه ، فاستعمل
المنجنيقات والمرايا المحرقة لتخريب اسطول المحاصرين ،
فكن المدينة من الدفاع عن نفسها دفاع الأبطال . إذن ،
فالعلم والوطنية اتفقا في نفسية أرخميدس في أمر الدفاع عن
الوطن المحصور ، ولم يختلفا بوجه من الوجوه

ان الثورة الفرنسية أيضا تعطى لنا مثالا بارزا « لتعاون
العلم والوطنية ، : عند ما تألبت الدول الأوروبية على فرنسا
بقصد خنق الثورة في مهدها ، جابهت الدولة المذكورة
مشكلة كبرى ، كادت تقضى عليها لولا مساعدة العلم والعلماء
لها ، فان الحصار الذى أحاط فرنسا بالنار والحديد من كل
الجهات ، حرم رجال الثورة إمكان استيراد المواد الأصلية
الضرورية لصنع الصابون والبارود والمدافع والأسلحة ،
عندئذ فكرت لجنة الدفاع الشعبى في الاستفادة من علماء
الكيمياء ، فاستنضت منهم لتخليص الوطن من هذه الحنة .

أن ندرسها كما ندرس الحادثات والقوى الطبيعية بوجه عام ،
والحادثات والقوى الاجتماعية بوجه خاص ...

ولا جدال في أن العلم يدرس الكون وحادثات الكون
« بحياء تام » . يدرس خواص الأشياء ، ويتبع سير الحادثات
ويتحرى أسبابها ، ويستقصى قوانينها ؛ وقد يتنبأ في بعض
الأحوال بمستقبلها أيضاً ، استنادا إلى القوانين التى اكتشفها
والعوامل التى أظهرها ... إنه يفعل كل ذلك ، دون أن يقدم على
استحسان أو استهجان الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه ، دون
أن يتأثر بموافقة أو مخالفة تلك الحقائق لمصالحنا المادية أو
لنزعاتنا الفكرية بصورة من الصور . لأن مهمة العلم تنحصر
في معرفة حقائق الأشياء واكتشاف قوانين الحادثات ، ولا
يتعدى ، ذلك إلى تحييد أو تقييح تلك الحقائق أو استحسان
أو استهجان تلك القوانين ...

لنا أن نتخيل كوناً غير هذا الكون ، ولنا أن نتصور
« مجتمعاً غير هذا المجتمع ، ولنا ألا نكتفى بالتخيل والتصور
بهذه الصورة ، بل نوصل الأمر إلى درجة التنى ، فنتمنى أن
يتحول الكون إلى الحالة التى تخيلناها ، وأن يتطور المجتمع إلى
الحياة التى تصورناها . . ولنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً :
لنا أن نعتبر ما تخيلناه وتصورناه في هذا الباب مثلاً أعلى
نسعى إلى تحقيقه بنشاط وحماس ، وهدفاً أسمى تتجه نحوه
بقوة واندفاع ... لنا أن نفعل كل ذلك ، على أن نعلم في الوقت
نفسه ، بأن تفكيرنا وعملنا في هذا السيل يكون من قبيل
الشعراو الفلسفة أو السياسة ... فلا يدخل في نطاق « البحث
العلمي » بوجه من الوجوه ..

لكم ، أيها الأستاذ ، أن تمنوا زوال الانانية من الأمم ؛
ولكم أن تصبوا إلى رؤية مجتمع تغلب فيه مصلحة الدول على
مصلحة الدولة الواحدة ، ولكم إذا شئتم أن تقوموا بدعاية
ترمى إلى تضحية مصلحة الدولة الواحدة إلى مصلحة سائر
الدول . . فأنى لا أناقشكم في كل ذلك في هذا المقام ؛ غير
أننى أقول بأنه لا يحق لكم بوجه من الوجوه أن تعزوا
تمنياتكم ونزعاتكم هذه إلى « العلم ، فتقولوا « العلم لا يتفق مع
الوطنية ،

ومن هؤلاء العلماء « برتوله » و « فوركروا » وجهوا أبحاثهم العلمية وجهودهم الفكرية ، نحو إيجاد الطرق التي تساعد على إحضار المواد المذكورة بصورة صناعية من المواد الموجودة داخل البلاد ، فنجحوا في مساعهم هذا وخدموا وطنهم بذلك أجل الخدمات .

وأما بعد ذلك فنستطيع أن نقول : إن « خدمات العلم للوطنية » أصبحت من الأمور الاعتيادية التي يصعب احصاؤها فان صحائف تاريخ العلوم من جهة وتاريخ الدول من جهة أخرى مملوءة بأثلة دالة على ذلك ، ولا سيما ما حدث منها خلال الحرب العالمية .

ربما تقولون أيها الأستاذ ، « إن هذه كلها من الأمور التطبيقية ، وستكررون في هذا المقام رأيكم في « العلم وتطبيق العلم » لأنكم قلتم في كلمتكم « فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم ، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يتغنون من وراثتها غير مجرد الدنو منها . تلك لذتهم الكبرى ، أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة »

فاسمحوا لي أن أقول : إن الطبيعة بعيدة عن مثل هذه التقسيمات القطبية في أمر « العلوم وتطبيقاتها » فان استغلال نتائج العلوم — بعد اكتشافها — لا يكون دائماً من عمل رجال آخرين غير العلماء المكتشفين ، بل كثيراً ما نشاهد في تاريخ العلوم أن العالم الباحث ، بعد أن يتوصل إلى معرفة الحقائق واكتشاف القوانين ينتقل بنفسه إلى التفكير في النتائج المأمولة والفوائد المتوقعة منها ، ويبحث عن تطبيقاتها فهل يحق لنا — في هذه الحالة — أن نخرجه من عداد العلماء بحجة أنه لم يكتف باكتشاف الحقيقة ، بل تعدى ذلك إلى التفكير في الاستفادة منها ؟ فهل يحق لنا مثلاً ألا نعتبر أرخميدس من « العلماء الحقيقيين » بالرغم من نظرياته واكتشافاته العلمية الكثيرة — لمجرد إقدامه على تطبيق بعض القوانين التي اكتشفها ؟ وهل يحق لنا أن نخرج « برتوله » من عداد العلماء — بالرغم من نظرياته وقوانينه المشهورة — لمجرد عدم اكتشافه تلك القوانين — وإقدامه على

توجيه بعض أبحاثه العلمية إلى الاتجاه الذي تتطلبه منه خدمة الوطن ؟

كلا ... إن مبدأ « العلم للعلم » يتطلب البحث عن الحقائق لنفسها ولولم ينتظر فائدة من وراء معرفتها ، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن الاستفادة منها .

إن هذا المبدأ يتطلب الاعتراف بالحقائق الثابتة ، مهما كانت نتائجها ؛ غير أنه لا يتطلب الامتناع عن توجيه الأبحاث العلمية نحو الحقائق التي ينتظر الحصول على فائدة وطنية من وراء معرفتها .

هذا واتماماً لاستقراء الوقائع التاريخية ، يجب على أن أشير إلى بعض الحوادث التي تدل على حدوث شيء من المخالفة والمشادة بين رجال العلم ورجال الوطنية في بعض الأحوال : إن تاريخ الثورة الفرنسية يعطينا مثلاً بارزاً لذلك : فان رجال الثورة أعدموا « لافوازييه » Lavoisier الذي يعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديث ، و « بايلي » Bailly الذي اشتهر بأبحاث فلكية هامة ؛ وسجنوا « كوندورسه » Condorcet الذي كان من كبار المفكرين ، فاضطروه الى الاتحار تخلصاً من المقصلة والعذاب ...

كما أن الانقلاب الألماني الأخير أعطانا مثلاً جديداً لذلك : فان الحكومة الوطنية ، طردت من البلاد عدداً غير قليل من العلماء ، وعلى رأسهم « إينشتاين » الشهير ...

غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذه الوقائع لا تدل على خصام بين العلم والوطنية ، من حيث الأساس . لأن العالم قلما يتفرغ إلى الأبحاث العلمية تفرغاً مطلقاً ، فانه لا يتجرد عادة عن الحياة الشخصية ، بل كثيراً ما يقوم ببعض الأعمال السياسية أيضاً ، كما أن تفكيراته لا تكون علمية في كل الموضوعات ، إذ أنه قد يفكر كما يفكر سائر الناس في المسائل التي تخرج عن نطاق اختصاصه ، ولا سيما في الأمور التي تدخل في ساحة الدعايات الحزبية والأعمال السياسية . فاذا ما تحدث مخالفة بينه وبين رجال السياسة الوطنية ، يكون قد حدث ذلك بالرغم من علمه لا بسبب علمه .

« الوطنية هي الأناية في المجموع ، غير أنها التضحية والايثار في الفرد ... »

نعم ان الوطنية هي التضحية والايثار - بالنسبة إلى أفراد البشر ، وإن كانت من قبيل الأناية بالنسبة إلى الكتل البشرية . ونستطيع أن نقول : انها أرق أشكال التضحية والايثار . فان مظاهر التضحية والايثار لاتتجلى في مجال من مجالات أعمال الانسان بالتنوع والسمو والقوة التي تتجلى بها في مجال الوطنية . وأما مظاهر الايثار التي تنشأ من الشعور الأسمى فإنها لاتذكر بجانب ذلك ...

اننى لأود أن أتوسع في هذه المسألة الآن غير أننى أود أن أختم هذه الرسالة بأحدى الكلمات التي قالها جان جاك روسو بأسلوبه الخلاب :

« بعض الناس يحبون أبناء الصين ، وذلك لكي يتخلصوا من الواجبات الفعلية التي يتطلبها منهم حب أبناء وطنهم الأقربين ، »

أبراهيم درويش

(بغداد)

في الطريق

كتاب جديد يصدر في سبتمبر

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أكثر من ٦٠ قصة في ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش ، الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك بفعل في منتصف أغسطس

فان « لافوزيه ، مثلاً كان من النبلاء الذين يحملون لقب « الماركيز » ، فإنه كان من « الملتزمين » الذين كانوا يشتغلون بحماية الضرائب من الناس . فاذا ما اتهمه رجال الثورة الفرنسية - بحق أو بغير حق - بالخيانة للوطن ، وحاكموه فأعدموه ، انما كان ذلك من جراء صفاته وأعماله هذه ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

وكذلك الأمر في « إينشتاين » : فان أبحاثه العلمية ونظرياته الفلسفية لم تجرده عن النزعات الطائفية ولم تبعده عن الأعمال السياسية . فاذا وجد رجال الحكومة الوطنية الألمانية - بحق أو بغير حق - في سلوكه وسلوك طائفته ما يضر بسلامة الوطن ، كان ذلك من جراء أعماله وأعمال طائفته السياسية ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

وربما كان من المفيد أن نذكر رأي بعض العلماء لايضاح هذا البحث أكثر مما تقدم . وربما كان رأي « باستور » الشهير من أبلغ الشهادات في هذا الباب :

إن هذا العالم الذي يعتبر بحق من العلماء الذين انتظمهم الروح العلمي بأكمل معانيه ، والذي قام بسلسلة أبحاث تعد بحق من أبرز وأنجح الأمثلة للطريقة التجريبية ... هذا العالم الكبير كان وطنياً منحمساً طول حياته ؛ وقد قال في خطبة بليغة ألقاها في أحد المؤتمرات الأئمة :

« لاوطن للعلم أربالاً أخرى ، وطن العلم يشمل العالم بأكمله ومع هذا لكل عالم وطن وعلى كل عالم أن يهتم بكل ما يخدم مجد وطنه ففي كل عالم حقيق كبير تجدون دائماً وطنياً كبيراً ، »

والآن بعد الانتهاء من هذه المناقشة ، اسمحوا لي أن أعود إلى إحدى القضايا التي كنت سلت بها جدلاً ، وهي أولى القضايا الثلاث التي سقمتوها للبرهنة على عدم امكان اتفاق العلم والوطنية :

« الوطنية هي الأناية في المجموع ، »

إننى لا أنكر صحة هذه القضية من حيث الأساس . غير أننى أرى من الضروري أن تتبعها بقضية ثانية فنقول :